

معالم المنهج العلمي في دراسات علماء المسلمين للأديان الشهرستاني أنموذجا

Milestones of the Scientific Method in the Studies of Muslims cholars of Religions Shahristani as a Model

يوسف الشاطر¹

باحث في مقارنة الأديان من المغرب وأستاذ لدى وزارة التربية الوطنية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس المغرب

prf.chater@gmail.com

تاريخ الوصول 02/10/2019 القبول 23/12/2020 النشر علي الخط 15/09/2021

Received 02/10/2019 Accepted 23/12/2020 Published online 15/09/2021

ملخص:

يعنى هذا البحث ببيان أهم معالم المنهج العلمي في دراسات علماء المسلمين للأديان، والتي تميزوا بها عن سبقهم من دارسي للأديان من جهة، وسبقوا بها من جاء بعدهم من علماء الغرب من جهة أخرى. مما أسهم بشكل بارز في مسيرة بناء وتأسيس علم إنساني جديد - قديم، ألا وهو "علم مقارنة الأديان". ويركز البحث على علم من أعلام المسلمين في هذا المجال، وهو أبو الفتح الشهرستاني، معرفا به وبكتابه الملل والنحل، وذاكرا دراساته الدينية وما ميزها من منهج علمي رصين، والتزام بضوابط البحث العلمي في الأديان، مما جعل العديد من الباحثين المعاصرين يشنون عليه ويصفونه بالسبق في مجال دراسة الأديان. والبحث بذلك يجيب عن بعض الأصوات التي تدعي أن دراسات علماء المسلمين للأديان لم تكن تحمل طابع العلمية، ولم تمثل دراسة للأديان بمعناها العلمي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: علماء المسلمين. الشهرستاني. دراسة الأديان. المنهج العلمي.

Summary:

This research means a statement of the most important features of the scientific curriculum in the studies of Muslim scholars of religions, which distinguished them from those who preceded them from Darsi to the religions on the one hand, and they kept them from coming after them from the scholars of the West on the other. This has contributed significantly to the building and establishment of a new - ancient humanistic science, "Interfaith Science". The research focuses on the science of Muslim media in this field, Abu al-Fath al-Shahrastani, his learned book, his deafening book, his religious studies and his distinguished scientific curriculum, and a commitment to the disciplines of scientific research in religions, which made many contemporary scholars praise and describe him as a priori in the field of studying religions. The research in this way answers some voices that claim that the studies of Muslim scholars of religions were not scientific in nature, and did not represent a study of religions in their contemporary scientific meaning.

Keywords: Muslims cholars. Shahristani. Study of religions. Scientific method.

¹ المؤلف المرسل: يوسف الشاطر البريد الإلكتروني: prf.chater@gmail.com

مقدمة:

إن الباحث في علم مقارنة الأديان سيجد نفسه أمام مجموعة من الإشكاليات التي لا زال النقاش دائرا حولها ولم يحسم فيها بعد. إشكالات تتعلق بموضوع العلم نفسه الذي هو الدين، ذلك أن الخلاف لا زال قائما حول تعريف الدين وحول نشأته، وهل هو أمر فطري ملازم للإنسان، أم أنه وضع بشري، وهل هو شيء ضروري للإنسان لا يمكنه الاستغناء عنه، أم أنه يمكنه العيش بدونه. وإشكالات تتعلق بعلم مقارنة الأديان نفسه كإشكال المتعلق بنشأة هذا العلم وبداياته الأولى، حيث نجد اختلافا كبيرا بين الباحثين في تحديد الانطلاقة الأولى لعلم مقارنة الأديان، فهناك من يرجع بداياته لعصور زمنية متقدمة¹، وهناك من يعتبره علما إسلاميا، ابتكره المسلمون، وأعطوا انطلاقاته الحقيقية². وهناك من يرى أنه وليد البيئة الغربية المعاصرة³. وإشكال الجدوى من هذا

¹ مثل الباحث الفرنسي "بينار دولا بولاي" (Pinard de la Boullaye) الذي يرى أنه إذا أخذنا كلمة علم بمفهوم واسع يدل على كل معرفة تعتمد على سلسلة دقيقة من الأدلة، فإن علم الأديان يجد جذوره في جهود الفلاسفة الأوائل الذين سعوا لتقديم شرح شامل للكون، مما أدى بهم إلى الإقرار بوجود الإله، وضرورة العبادة. يقول:

« Si l'on prend le mot science dans un sens large, comme désignant toute connaissance qui ne s'appuie ni sur la seule expérience individuelle, ni sur l'autorité pure, mais sur un enchaînement rigoureux de preuves, la Science de la religion trouve ses origines dans les efforts des premiers philosophes pour fournir une explication totale de l'univers, qu'ils aient abouti à reconnaître l'existence de la divinité et la nécessité d'un culte. »

de la Boullaye, Pinard, Histoire de l'étude comparée des religions, Copyright by Gabriel Beauchesne, Paris, 1922, p23

ومنهم الباحث "تيواري كيدرنات" (Kedarnath Tiwari) الذي يرى أن المحاولات الأولى لعلم مقارنة الأديان ظهرت بالهند، غير أن الوضعية السياسية التي كانت سائدة آنذاك حالت دون الاهتمام بهذه المحاولات. يقول:

« Attempts at comparative study of religions have been made in India since very old days, but due to the political subjugation that she had to suffer for long, her voice was not recognised and cared for in the family of nations. » Kedarnath Tiwari, Comparative religion, Motilal Banarsidas, Delhi, 1983, p1

² منهم إبراهيم تركي الذي قال: "إنه من الممكن أن يقال، وفي شيء من الاطمئنان: إن مفكري الإسلام كان لهم فضل السبق في ظهور علم مقارنة الأديان. إذ إنه من الملاحظ أنه لا توجد في الثقافات السابقة على الحضارة الإسلامية مؤلفات تعالج هذا الموضوع بالدقة والمنهجية التي اتسمت بهما الكتابات الإسلامية في هذا الصدد." تركي إبراهيم، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2002، ص55.

ومنهم آدم ميتز (Adam Metz) الذي قال: "وكان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى، وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى، سببا في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى، وهو علم مقارنة الملل." ميتز آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1987، 366\1

³ يقول الباحث بينار دولا بولاي (Pinard de la Boullaye) - بعد أن عرف علم الأديان - : "يجب الاعتراف بأن هذا العلم حديث جدا. علم الأديان وعلم اللغة معاصران لبعضهما تقريبا، يعود ظهورهما للقرن الماضي. (أي القرن التاسع عشر)." .

العلم وأهميته، والذي يطرح خصوصا في العالم الإسلامي، حيث يظهر للبعض أن هناك تعارضا بين هذا العلم وبين الدين الإسلامي، وأنه إذا كان الإسلام هو الدين الحق فلم ندرس باقي الأديان. ومما يزيد في تعميق هذا الإشكال استحضر بعض النصوص الشرعية، بل والاستشهاد بها على عدم جواز الخوض في هذا العلم، كقوله تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)(آل عمران\85). وقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام)(آل عمران\19). وهي طبعاً استشادات في غير محلها.

ولعل من أكبر الإشكاليات التي لا زالت تواجه الباحث في علم مقارنة الأديان، إشكال المنهج المتبع في دراسة الأديان ومدى علميته وحياده وموضوعيته. ذلك أن دراسة الدين هي دراسة لأقرب شيء للإنسان وأكثره ملازمة له، مما يجعل كثيراً من الأسئلة المتعلقة بصدق النتائج المتوصل إليها من خلال الدراسة، ومدى حياد الدارس وموضوعيته، والقصد من دراسته، تطفو على السطح، خاصة إذا تعلق الأمر بدراسة ديانة لا ينتمي إليها الباحث.

وقد وضع علماء الغرب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجموعة من الضوابط والشروط التي يتوقف عليها علم مقارنة الأديان وتجعل البحث في الأديان ودراساتها موضوعياً ومحيداً يصل بصاحبه إلى نتائج واقعية وصادقة. ومن بين هذه الشروط، شرط المنهج.

وقد تعددت المناهج المتبعة في دراسة الأديان في الغرب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث سلطت على الأديان مناهج مختلف العلوم التي سبقت علم مقارنة الأديان، فهناك من درس الأديان بتطبيق مناهج العلوم التجريبية، كالمناهج الوضعية والمنهج المسحي والمنهج التجريبي، وهناك من درسها بتطبيق مناهج العلوم الإنسانية، كالمناهج التاريخية والمنهج المقارن، وهناك من طبق مناهج حديثة في دراسة الأديان، مثل المنهج الظاهراتي (فينومينولوجيا الأديان) والمنهج التأويلي (هرمينوطيقا الأديان) والمنهج الدلالي (سيميلوجيا الأديان) والمنهج البنيوي والمنهج التفكيكي.

ورغم تعدد واختلاف هذه المناهج فإنها لا شك تشترك في طابع العلمية، هذه العلمية التي لها مجموعة من الملامح والمعالم والضوابط التي لا بد للباحث في الأديان أن يستحضرها ويراعيها ويطبّقها حتى يمكن أن نصف منهجه بالعلمية. ومن أبرز هذه المعالم: الحياد والموضوعية، والرجوع إلى المصادر الأصلية لكل ديانة.

وفيما يخص دراسات علماء المسلمين للأديان، فرغم إشادة عدد من الباحثين الغربيين بهذه الدراسات، معتبرين أن المسلمين كانوا سابقين إلى هذا العلم، وأنهم أسهموا بشكل بارز في مسيرة بنائه وتأسيسه، وأنهم اتبعوا في ذلك منهجاً علمياً في أكثر جوانبه، فإن هناك من ينفي عن المسلمين أي منهج علمي في التأليف والدراسة، سواء في الأديان أو في غيرها من العلوم¹.

¹ يقول يوسف زيدان: "ولأن المؤرخين المسلمين وضعوا كتباً للتعريف بعقائد أهل الملل والديانات غير الإسلامية، فقد عد بعضهم علم مقارنة الأديان علماً إسلامياً أصيلاً، اختفى عن المسلمين حيناً من الزمان، ثم عاد إليهم في العصر الحديث." واعتبر يوسف زيدان ذلك زعماً علمياً مأزوماً، مضيفاً: "ففي حقيقة الأمر، لم يقدم علماء المسلمين الأوائل علماً لمقارنة الأديان، بالمعنى المذكور، بل لم يقدموا تاريخاً للعقائد على النحو الواجب... فأما ذلك الذي قدمه ابن حزم والشهرستاني والمسيحي والنوختي وأمثال هؤلاء، فهو وصف عام لعقائد الفرق والجماعات الإسلامية وغير الإسلامية، فحسب" زيدان يوسف، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، دار الشروق، القاهرة، 2010، ص 26-27.

في هذا السياق يأتي هذا البحث المعنون ب: "معالم المنهج العلمي في دراسات علماء المسلمين للأديان، الشهرستاني أنموذجاً"، ليعسلط الضوء من جهة على هذا العالم المسلم، وليبرز من جهة أخرى ملامح منهجه العلمي في دراسة الأديان. وذلك بهدف بيان سبق المسلمين في الالتزام بضوابط البحث العلمي في الأديان. ومن ثم فالإشكال الرئيس الذي يعالجه هذا البحث هو: ما مدى التزام علماء المسلمين في شخص الشهرستاني بضوابط البحث العلمي في الأديان؟ وما مدى علمية الدراسات التي قام بها الشهرستاني للأديان؟

مدخل عام: المنهج التاريخي الوصفي في دراسة الأديان عند المسلمين:

تعددت مناهج دراسة الأديان عند المسلمين، وتنوعت بين التأريخ والوصف، والنقد والمقارنة والرد والمجادلة، فالذي يرجع إلى تراث المسلمين منذ القرن الثاني الهجري، سيجد كما هائلا من الدراسات والكتب التي اهتمت بالأديان تأريخا ووصفا ونقدا ومقارنة وجدالا.

ويعتبر المنهج التاريخي الوصفي من أهم المناهج التي اتبعها المسلمون في دراستهم للأديان، وهو منهج يعنى بالتأريخ للأديان، ووصف معبوداتها ومعتقداتها وشعائرها وفرقها، دون تحليل أو نقد أو رد أو إبطال.

وقد شغل التأريخ للأديان ووصفها مساحة واسعة من فكر المسلمين حتى امتلأت المكتبة الإسلامية بكتب عديدة ذات صلة بالموضوع، فقد كتب أبو عيسى الوراق (ت247) "مقالات الناس واختلافهم" وكتب آخرون كتباً حملت اسم "المقالات" منهم أبو القاسم البلخي (ت319)، وأبو الحسن الأشعري (ت324)، والناشي الأكبر، والمسعودي (ت346). ثم كتب البخاري (ت310) كتابه "الآراء والديانات"، وكتب أبو المعالي العلوي كتابه "بيان الأديان"، وصنف أبو العباس الإيرانشهرى والمسبحي "درك البغية في الأديان والعبادات"، وكتب كثيرون كتباً بعنوان "الملل والنحل" مثل أبي منصور البغدادي، والشهرستاني¹.

ولم يعتمد علماء الإسلام في وصفهم للأديان المختلفة على الخيال والظن ولا على الأخبار المحتملة للصدق والكذب، ولا على العوائد الشائعة في الطبقات الجاهلة التي قد تنحرف قليلاً أو كثيراً عن حقيقة أديانها، ولكنهم استمدوا أوصافهم لكل ديانة من مصادرها الموثوق بها، واستقوها من منابعها الأولى². كما امتاز منهجهم في وصف الأديان بالموضوعية والحياد، وبكثير من السمات التي تعتبر اليوم من أهم قواعد البحث العلمي في الأديان ودراساتها.

¹ الشرقاوي عبد الله، في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات، دار الفكر العربي، القاهرة، 2002، ص38

² دراز عبد الله، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 2003، ص21

المبحث الأول: التعريف بأبي الفتح الشهرستاني وكتابته "الملل والنحل"

يعتبر أبو الفتح الشهرستاني من أبرز الوجوه الإسلامية في ميدان دراسة الأديان والتأريخ لها، حيث صنف في ذلك عددا من الكتب، أكثرها مفقود¹، وقدم إسهامات ذات قيمة علمية كبيرة، مما جعل أكثر الباحثين والدارسين يشنون عليه ويعتبرونه من رواد علم مقارنة الأديان.

أولا: التعريف بأبي الفتح الشهرستاني

هو محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، وكنيته أبو الفتح، ويلقب بتاج الدين. ولد ببلدة شهرستان بإقليم خراسان، وقد اختلف في سنة ولادته، والراجح أنه ولد سنة 479 هجرية². أما وفاته فكانت سنة 548 هجرية. شافعي المذهب، وأشعري العقيدة. اشتغل بطلب العلم منذ الصغر، ورحل إلى بلاد عدة من أجل ذلك³، فتبحر في علوم عديدة حتى لقب بالفقيه، والمتكلم، والأصولي، والمحدث، والمفسر، والرياضي والفيلسوف. وأطلق عليه الذهبي في تذكرة الحفاظ لقب "العلامة"⁴. وإلى جانب علمه كان الشهرستاني ذا خلق رفيع، مما جعله محبوبا عند العامة والخاصة. ترك مصنفات عديدة منها: نهاية الإقدام في علم الكلام، ومصارعة الفلاسفة، وبحث في الجوهر والفرد، ومفاتيح الأسرار ومصاييح الأبرار⁵، والإرشاد إلى عقائد العباد وغيرها⁶.

قال فيه ابن خلكان: "كان إماما مبرزاً فقيها متكلما... برع في الفقه، وتفرد بعلم الكلام... كان كثير المحفوظ، حسن المحاور، يعظ الناس."⁷ وقال الزركلي: "من فلاسفة الإسلام. كان إماما في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة."⁸ وقال فيه المستشرق الألماني ألفرد جيوم: "الشهرستاني هو آخر فيلسوف عظيم قبل ابن رشد، وهو جدير بأن ينظر إليه باعتباره ذا أصالة فكرية."⁹

¹ منها كتاب "الإرشاد إلى عقائد العباد" وكتاب "تلخيص الأقسام لمذاهب الأنام"

² السحيباني محمد، منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، عرض وتقويم، دار الوطن، الرياض، ص 39

³ كان الشهرستاني كثير السفر والترحال، وقد بدأت رحلاته وهو لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره. رحل إلى خراسان وخوارزم ومكة وبغداد وغيرها.

⁴ شمس الدين الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1313\4، 1998

⁵ وهو كتاب في علم التفسير

⁶ للتوسع في ترجمة الشهرستاني ينظر: أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972\4، 273-275. الصفدي صلاح الدين، الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركيب مصطفى، دار إحياء التراث العربي، 2000\3، 229.

خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 2002\6، 15، 215. إيلي ألفا روبي، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، دار الكتب العلمية، 1992\2، 41-42

⁷ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (م.س) 4\274

⁸ خير الدين الزركلي، الأعلام، (م.س) 6\215

⁹ محمد السحيباني، منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، (م.س) ص 48

ثانياً: التعريف بكتاب "الملل والنحل"

يعد كتاب الملل والنحل من أهم الكتب التي ألفها الشهرستاني، ليس في الأديان فقط، بل في حياتها كلها، ولهذا ارتبط به ارتباطاً وثيقاً، فلا يكاد يذكر اسم الشهرستاني إلا وذكر كتابه الملل والنحل، كما يعد من أشهر كتب التراث الإسلامي في مجال دراسة الأديان.

أ: محتوى الكتاب:

قسم الشهرستاني كتابه إلى قسمين كبيرين صدرهما بخمس مقدمات بين فيها منهجه في الكتاب، خصص الأول منهما للحديث عن الفرق الإسلامية، وهي المعتزلة والجبورية والصفائية والخوارج والمرجئة والشيعة وأهل الفروع، فعرف بها، وذكر فرقها ومن تنسب لهم، وما تقول به. أما في القسم الثاني فقد أخذ في سرد الملل غير الإسلامية ومقالات أهل العالم من أرباب الديانات والشرائع، وأهل الأهواء والنحل، والوقوف على مصادرها ومواردها وشواردها، فذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتحدث عن أشهر فرقهم، ثم ذكر من لهم شبهة كتاب فتحدث عن المجوسية والمناوية والمزكية وسائر فرقهم، ثم عدد بيوت النيران وبناتها وأماكنها وما ذهب إليه القوم من تعظيمها، وانتقل بعد ذلك إلى الكلام عن أهل الأهواء والنحل، فأخذ في ذكر الصابئة وتعصبهم للروحانيات، وفصل آرائهم وأقوالهم، وما أجابت به الحنفاء عن مزاعمهم. ثم انتقل للحديث عن الحزنايين وطريقتهم، وما عبدوه من النجوم، وما استندوا إليه في التنجيم، وتحدث بعد ذلك عن فلاسفة اليونان وما ذهبوا إليه وما أظهروه من الطبيعيات والإلهيات والرياضيات. وختم كتابه بالحديث عن العرب في الجاهلية والهند، وما كانوا عليه من عقائد ومذاهب.¹

ب: أهمية الكتاب ومنزلته العلمية:

يعد كتاب الملل والنحل من أهم كتب التراث الإسلامي وأشهرها في مجال التأريخ للأديان والفرق والمذاهب. احتل مكانة رفيعة بين كتب المقالات والفرق والأديان، وفرض نفسه بقوة في المكتبة الإسلامية، فكان من أكثر الكتب تداولاً بين المتخصصين والدارسين، وأيسرها فهماً على الطلبة والباحثين.

ورغم صغر حجم كتاب الملل والنحل، فإنه يمتاز بغزارة المادة وشموليتها والاستقصاء في البحث، والدقة والتحقيق في الموضوعات التي يتناولها، والاعتدال في الأحكام التي يصدرها.² كما يعتبر كتاب "الملل والنحل" من أهم الكتب التي وضعها المسلمون في مجال علم مقارنة الأديان، وخاصة فيما يتعلق بالتأريخ ووصف الأديان.³ ونظراً لأهميته فقد طبع عدة مرات، وترجم إلى أكثر من لغة⁴، وظل لفترة طويلة مرجعاً هاماً في مجال دراسة الأديان والفرق الدينية.¹ كما أثني عليه الكثير من الدارسين ووصفوه بالسبق والتفرد والتميز:

¹ الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993، مقدمة المحققين

² الشهرستاني، الملل والنحل، (م.س) مقدمة المحققين

³ تركي إبراهيم، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، (م.س) ص 117

⁴ طبع الكتاب عشرات المرات، بالعربية والفارسية والتركية والإنجليزية والألمانية.

- قال فيه السبكي: "هو عندي خير كتاب صنف في هذا الباب."²

- وقال ألفرد جيوم: "منذ أن نشر الأستاذ وليم كورتن كتاب الملل والنحل للشهرستاني في جزئين سنة 1846م، فقد ظل هذا الكتاب موردا خصباً لطلاب الديانات والتاريخ، وظل هو السند الأول الذي يمكن أن يبحث فيه عما يراد معرفته من عقائد وفلسفة الشرق الأدنى، وبالرغم من أن الكتب الشبيهة التي نشرت بعد ذلك مثل فصل ابن حزم، والفرق بين الفرق، قد قللت من أهمية هذا الكتاب شيئاً ما، إلا أنه ظل الملخص الوافي، الذي تبوب فيه الملل على اختلافها، وخصائص ومميزات كل منها، مما جعله بحثاً لا يمكن الاستغناء عنه في أي زمان."³

- وقال المستشرق الألماني هاربركر: "بواسطة الشهرستاني في كتابه الملل والنحل نستطيع أن نسد الثغرة التي في تاريخ الفلسفة بين القديم والحديث."⁴

المبحث الثاني: ملامح المنهج العلمي في دراسات الشهرستاني للأديان من خلال كتابه "الملل والنحل":

إن الناظر في كتاب الملل والنحل سيجد نفسه أمام دارس متخصص في الأديان والفرق والمذاهب، ملتزم بضوابط البحث العلمي، فقد اتبع الشهرستاني في تأريخه للأديان ووصفها منهجاً احتوى بعض السمات التي تعد اليوم من أهم الضوابط والشروط العلمية المتبعة في دراسة الأديان.

أولاً: الاهتمام بالمقدمات والخواتيم

تخلل كتاب الملل والنحل من أوله إلى آخره ذكر مقدمات وخواتيم تخص كل فرقة أو نخلة أو ملة، وهذا منهج انفرد به الشهرستاني عن سائر العلماء الذين خاضوا هذا المجال. فنراه مثلاً يضع في مقدمة كتابه خمس مقدمات، يودع فيها خلاصة منهجه. وقد كانت هذه المقدمات تخصص غالباً لشرح بعض المصطلحات، والمقابلة بين الفرق والملل، وسبب التسمية، ونحو ذلك⁵. أما الخواتيم فكان الشهرستاني يذكر فيها ما قد فات، أو خلاصة عن الفرقة، أو ذكر بعض رجالها⁶.

¹ تركي إبراهيم، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، (م.س) ص 117

² السبكي تاج الدين عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 128\6

³ السحبياني محمد، منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، (م.س) ص 215

⁴ الشهرستاني، الملل والنحل، (م.س) مقدمة المحققين

⁵ مثلاً في المقدمة الخاصة بأهل الكتاب نجد الشهرستاني يشرح مصطلح أهل الكتاب، ويقابل بينهم وبين من لهم شبهة كتاب، ويقارن كذلك بين اليهود والنصارى. الشهرستاني، الملل والنحل، (م.س) 1\247. وفي المقدمة الخاصة باليهود نجد يذكر سبب تسميتهم بذلك الاسم وغير ذلك. الشهرستاني، الملل والنحل، (م.س) 1\250

⁶ السحبياني محمد، منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، (م.س) ص 273

ومعلوم ما لهذه المقدمات والخواتيم من أهمية بالغة، فهي تيسر على القارئ فهم الكتاب، من خلال تبين منهج صاحبه فيه، ومن خلال شرح الكلمات المفاتيح، كما أنها تسمح للكاتب باستدراك ما فاتته من معلومات، أو تصحيح ما وقع فيه من خطأ. وهذا كله يكسب الدراسة مزيداً من العلمية والمصداقية.

ثانياً: التركيز على المصطلحات

اهتم الشهرستاني بالتعريف بالمصطلحات المفاتيح الواردة في كتابه، إذ قلما يذكر مصطلحاً دون التعريف به، وبيان المراد منه، بل إنه يحرص أيضاً على التعريف بالفرق والطوائف، وتبيين سبب تسميتهم بتلك المسميات، من ذلك مثلاً الإشارة إلى سبب تسمية اليهود بهذا الاسم، حيث يقول: "هاد الرجل: أي رجع وتاب. وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام (إنا هدنا إليك) أي رجعنا وتضرعنا."¹

وهذا مما يهتم به مؤرخو الأديان في العصر الراهن، إذ يلاحظ التركيز الكبير على دراسة المصطلحات والمسميات، وبيان أصولها، وأسباب تسمياتها، حتى ظهرت موسوعات خاصة بذلك.

ثالثاً: الرجوع إلى المصادر الأصلية

يعتبر الرجوع إلى المصادر الأصلية لكل ديانة لاستقاء المعلومات عنها من أبرز معالم البحث العلمي الحديث في الأديان. وقد اتبع الشهرستاني هذا المنهج في تأريخه للأديان ووصفه لها، والترم به إلى حد بعيد، بل إنه اشترطه على نفسه في المقدمة الثانية من كتابه فقال: "شرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم"² وهذا يقتضي - كما ذكر محمد السحبياني - كثرة مصادره وتعدددها، بسبب ما تضمنه الكتاب من الحديث عن أهل العالم جملة، إذ تحدث عن معظم الملل والفرق التي كانت في عصره وما قبله، فما ظنك بمصادر هذه المادة، إنها تقتضي مصادر كثيرة جداً، ومتعددة، تبلغ المئات من الكتب والمؤلفات.³

ولا شك أن الرجوع إلى المصادر الأصلية لكل ديانة يعد من أبرز معالم المنهج العلمي في دراسة الأديان، إذ به يكون الحديث عن الديانة حديثاً موضوعياً صادقاً، لا لبس فيه ولا شك، إذ تؤخذ الأقوال والمعتقدات والأفكار عن كل ديانة من مصادرها الموثوقة، والمعترف بها لدى أصحابها.

والأدلة على رجوع الشهرستاني إلى المصادر الأصلية للديانات التي درسها كثيرة، وشواهدا عديدة في كتابه الملل والنحل، فمثلاً عند حديثه عن أهل الكتاب نجد إشارات توحى باطلاعه على التوراة، ومن هذه الإشارات:

¹ الشهرستاني، الملل والنحل، (م.س) 1\250

² الشهرستاني، الملل والنحل، (م.س) 1\22

³ السحبياني محمد، منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، (م.س) ص 233

- ذكر المضمون العام للأسفار الخمسة المشكلة للتوراة، وذلك في قوله: "وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده" فأثبت لها اختصاصا آخر سوى سائر الكتب، وقد اشتمل ذلك على أسفار. فيذكر مبتدأ الخلق في السفر الأول، ثم يذكر الأحكام والحدود، والأحوال والقصص، والمواعظ والأذكار في سفر سفر.¹

- الإخبار ببعض الحقائق التي جاءت في التوراة كقوله "واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام حقا"²

- الإشارة إلى الأحكام الواردة في التوراة، وذلك في قوله: "وفي التوراة أحكام عامة، وأحكام خاصة، إما بأشخاص، وإما بأزمان..."³

أما فيما يخص الأناجيل فقد ساق الشهرستاني نصوصا منها، وفي ذلك دلالة واضحة على أنه قد اطلع عليها. ومن بين تلك النصوص: "وقال المسيح في الإنجيل: ما جئت لأبطل التوراة، بل جئت لأكملها."⁴

كما أشار إلى الأناجيل الأربعة. وجاءت هذه الإشارة في المقدمة الثالثة عند حديث الشهرستاني عن أول شبهة وقعت في الخليفة، حيث قال: "وتلك الشبهات مسطورة في شرح الأناجيل الأربعة: إنجيل لوقا، ومارقوس، ويوحنا، ومتى، ومذكورة في التوراة متفرقة على شكل مناظرات..."⁵. إضافة إلى إشارته إلى رسالة بولس⁶ إلى اليونانيين⁷، وغير ذلك.

ثالثا: الحياد والموضوعية:

الموضوعية كما شرحها عبد الوهاب المسيري عبارة عن "إدراك الأشياء على ما هي عليه دون أن يشوبها نظرة ضيقة أو أهواء أو ميول أو مصالح أو تحيزات أو حب أو كره".⁸

ويعتبر التجرد من الذاتية والتزام الموضوعية من أبرز سمات المنهج العلمي الحديث، خاصة في مجال الأديان. وقد التزم الشهرستاني الحياد في تقرير وجهة نظر الفرق وعقائدها، دون أية محاولة للرد عليها، أو إظهار بطلانها، أو تهافتها بالنسبة لما يدين به

¹ الشهرستاني، الملل والنحل، 1\251

² نفسه، 1\253

³ نفسه، 1\255

⁴ نفسه، 1\254

⁵ الشهرستاني، الملل والنحل، (م.س) 1\23

⁶ من كبار رجال التاريخ النصراني، هو يهودي من فرقة الفريسيين، وكان اسمه "شاؤول" وكان يضطهد النصارى ويحارب المسيحية، إلا أنه فجأة اعتنقها وصار من مؤيديها، وادعى أنه تلميذ المسيح، وكان ذلك سنة 33م. وإليه تنسب النصرانية الراهنة في كثير من عقائدها وشعائرها. أبو زهرة محمد، محاضرات في النصرانية، الرئاسة العامة لإدارات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، 1404 هجرية، ص 85

⁷ يقول الشهرستاني في سياق حديثه عن النصارى: "ورأيت رسالة فولوس التي كتبها إلى اليونانيين" الشهرستاني، الملل والنحل، (م.س) 1\264

⁸ المسيري عبد الوهاب محمد، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق القاهرة، 1999، 1\95.

المصنف، بل إن المؤلف جعل ذلك شرطاً على نفسه، حيث ذكر أنه سيورد الآراء من غير تعصب لأصحابها، ولا كسر عليهم، ودون بيان صحيحها من فاسدها، وحقها من باطلها¹. يقول: "شرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم، من غير تعصب لهم ولا كسر عليهم، دون أن أبين صحيحه من فاسده، أو أعين حقه من باطله"² ولهذا وجدنا الشهرستاني يصف العقائد والشعائر الغريبة التي لا يقبلها العقل، ولا يصدقها الحس، وتنفر منها الفطر السليمة، دون أن يطعن فيها، أو ينتقدها، أو يبطلها.

وقد شهد لموضوعية الشهرستاني وحياده ثلة من العلماء والباحثين المعاصرين، نقل أقوال بعضهم سهير محمد مختار في رسالته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة عين شمس بعنوان "الشهرستاني وآراؤه الكلامية والفلسفية" مثل كارادي فو الذي قال: "إن الشهرستاني بالنسبة لتحليل المذاهب كان دقيقاً جداً، وموضوعياً للغاية بصفة عامة." وجورج مارطون الذي قال: "وإن هذا الكتاب ليس الأول من نوعه باللغة العربية، إلا أنه أكثر موضوعية من كتاب الفرق بين الفرق للبغداد، وأشد تجرداً من كتاب الفصل... وهو أسبق المحاولات لدراسة تاريخ الأديان في أي لغة."

خاتمة:

إن الناظر في دراسات علماء المسلمين للأديان، سيجد أنهم كانوا سباقين إلى الالتزام بضوابط البحث العلمي من دقة وموضوعية وحياد ورجوع إلى المصادر الأصلية. وكان الشهرستاني أبرز مثال على هذا السبق والالتزام، فقد أسهم في التأريخ لعدد من الأديان والنحل والمذاهب، ووصف فرقها ورموزها وعقائدها وشعائرها وطقوسها وغير ذلك، واتبع في ذلك - كما يرى إريك شارب - منهجاً تاريخياً علمياً سديداً لم يكن لأي كاتب مسيحي في عصره أن يكتب مثله، سبق به علماء الغرب بقرون³. فلا عجب أن يستحق بعد ذلك - حسب دائرة المعارف الإسلامية - لقب عمدة مؤرخي الملل والنحل خلال القرون الوسطى⁴.

إن هذا السبق من جانب علماء المسلمين في دراسة الأديان وفق منهج علمي رصين، وهذه الإشادة بهذا السبق من قبل الباحثين والمختصين الغربيين، لا تعكس واقع دراسة الأديان في العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر، إذ يلاحظ ضعف هذه الدراسات مقارنة بالدراسات الغربية سواء من حيث المضمون أو العدد، مما يستدعي تضافر الجهود للنهوض مجدداً بهذا العلم، هذا

¹ أدخل الشهرستاني في بعض المناسبات بهذا الشرط، فانتقد وأبطل وفند بعض المقولات. من ذلك استبعاده ونفيه للمقالة التي ذكرت عن الزروانية (إحدى فرق المجوس) في مسألة الصراع بين الرب وإبليس. يقول: "ولست أظن عاقلاً يعتقد هذا الرأي القائل، ويرى هذا الاعتقاد المضمحل الباطل... ومن عرف الله سبحانه وتعالى بجلاله وكبريائه، لم يسمح بهذه الترهات عقله ولم يسمح بهذه الترهات سمعه." الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص280. وهذه الاستثناءات لا تنفي عن المؤلف خاصية الحياد والموضوعية، لأنه قل من يفي بذلك في عرضه للآراء والمذاهب المخالفة. يقول مصطفى حلمي: "نرى أن لافتة الحيادة العلمية لم تعد تقنع أحداً عند البحث في الأديان، فما من باحث إلا وهو حامل عقيدته التي لا يستطيع التخلي عنها مهما زعم ارتداد ثوب الحيادة." حلمي مصطفى، الإسلام والأديان دراسة مقارنة، دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1990، ص7

² الشهرستاني، الملل والنحل، (م.س) 1\22

³ الشرفاوي عبد الله، في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، (م.س) ص33. نقلاً عن:

النهوض الذي لن يتأتى إلا من خلال اعتبار هذا العلم من العلوم المشككة للتراث الإسلامي، ومن ثم إيلائه الأهمية اللازمة بإقامة الندوات والأيام الدراسية، وتوسيع دائرة تدريسه بالمدارس والكلليات.

وفي ما يلي أهم نتائج البحث:

- يعد البحث في الأديان ودراساتها مهمة شاقة نظرا للإشكاليات الكثيرة المرتبطة بهذا العلم.
- تعددت المناهج المطبقة في دراسة الأديان وتنوعت مما جعل علم مقارنة الأديان مجالاً خصبا للبحث والدراسة والتجديد.
- أقبل علماء المسلمين على دراسة الأديان منذ العصور الأولى للإسلام، وطبقوا في دراساتهم مناهج كثيرة كان من أهمها المنهج التاريخي الوصفي.
- أرخ الشهرستاني للأديان ووصف معتقداتها وشعائرها وكتبها ورموزها، وطبق في ذلك منهجا اتسم بالعلمية في كثير من جوانبه.
- رجع الشهرستاني في تأريخه للأديان لمصادرها الأصلية، والتزم بالحياد والموضوعية خلال الحديث عنها، مما جعل الباحثين يثنون عليه ويصفونه بالسبق في ميدان دراسة الأديان والالتزام بضوابط البحث العلمي.

المصادر والمراجع العربية:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم
- الزركلي خير الدين، الأعلام، بيروت، دار العالم للملايين، الطبعة 15، 2002
- حلمي مصطفى، الإسلام والأديان، دراسة مقارنة، دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1990
- الذهبي شمس الدين، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998
- ميتز آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1987
- دراز عبد الله، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، القاهرة، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 2003
- دائرة المعارف الإسلامية، تأليف مجموعة من المستشرقين، ترجمة مجموعة من الكتاب، بدون طبعة
- السبكي عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت
- تركي إبراهيم، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2002
- الشرقاوي محمد عبد الله، في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات، القاهرة، دار الفكر العربي، 2002
- زيدان يوسف، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، دار الشروق، القاهرة، 2010
- الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993

- إيلي ألفا روني، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، بيروت ، دار الكتب العلمية، 1992
- السحبابي محمد، منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، عرض وتقويم، دار الوطن الرياض.
- المسيري عبد الوهاب محمد، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق القاهرة، 1999
- أبو زهرة محمد، محاضرات في النصرانية، الرئاسة العامة لإدارات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، 1404 هجرية

- ابن خلكان أبو العباس، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1972
 - الصفدي صلاح الدين، الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركبي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، 2000
- المراجع الأجنبية:

de la Boullaye Pinard, Histoire de l'étude comparée des religions, Copyright by Gabriel Beauchesne, Paris, 1922

KedarnathTiwari, Comparative religion, MotilalBanarsidas, Delhi, 1983